الغُولَة

سارت وسـط أشـجار الكافور والبوص المتناثرة على جسر الكعكة. تمسك بحبل يشنق حمارها، وفي يدها رضيع ملفوف كأوراق الكرنب. ظلها يتحسـس البيوت والأخصاص، يتخطى النهر المردوم، يتموج مع الجسر رغم ظلمات الساقية وسخام الترعة. يقفز على الأسقف، يمشي بخفة على تكعيبة العنب ونسيج اللوف الأخضر، يتخطى أعواد الزنزل الممتزج بالطين والقش، يرح الخوف أسـفل قدميها، يقول فيستمعون، يغضب فيقدمون أقطاف العنب وأكواز اللوف والعسل والأطفال والرضع.

على سلخة من طين وحشيش تترجل إلى السلخانة وتترك نعليها والحمار بالخارج. على نهر من الدم تشمر يدي الرضيع وتغمسها في جدار السلخانة. خمسـة أصابع محناة بالدم كفيلة لطرد الفِتاء. تعود إلى حمارها فتجده يشتقّ كالجمل، وبجانبه مقطف مملوء باللفت والسبانخ. أهل القرى كرام، لكن

صغارهم عفاريت. تضع الرضيع في المقطف وتركب الحمار. تتخطى عمار القرية إلى شرق الترعة، وظل الشجر يأكل وجهها. رأسها معصوب بتربيعة سوداء، ثدياها يتدليان من جلبابها الأسود. الصدر والأكمام من القطيفة، بكورنيش واسع مليء بالكسرات. يقلدها الأطفال هناك، بعينيها الواسعة السمراء ورمشها المنحول. جلدها منقرش بالبياض وفي ضبها ناب. تدور زينب في حلقة حول أمنا الغولة وابنتها المنكوشة، الغولة في قلب الدائرة، تنقي القمل، وعلى ظفر سبابتها يطقطق كالملح. زينب خفيفة كالريشة، تصطفي أشجار البوص وتختبئ خلفها. هناك، بودرة العفاريت كثيرة، وإذا بدّرت بنتًا ستهجم العفاريت عليها وتنهش جسدها طوال الليل. تغني البنات في سعادة ويعلو صوتهن فوق ماكينة الري: أمنا الغولة.. طقطقت الفولة!

أمنا الغولة تقترب والعين على سن السكين، في غمضة عين تهرب البنات وظلها العملاق يغطي كل شيء. عند تكعيبة العنب رأت زينب ظلها، بينما ذابت الأم المزيفة، مع الأخريات، في مياه الترعة. الغولة على حمارها تأكل ورق الأشجار، وحقيبة الصفيح أمامها. رأتها زينب تقترب، التقطت شقفة حادة، ودعت الله أن تخرم رأسها، أو توقعها أسفل أقدام الحمار فتركبها. تفرط أسنانها، تطحن أنفها، وتخلع شعر رأسها. هُدى ذات القمل، كانت برفقة زينب، تراقب المشهد، وترتعش.

اختبأت البنتان وراء نخلة، كتمتا أنفاسهما حتى تمر بسلام. هدى أخذت

الشقفة من يد زينب وهمست لها «هش!»، لكنها عندما رأت الغولة تدخل الشارع الضيق وتربط الحمار في عمود النور، لم تستطع أن تهشَّ، قرفصت وبللت بنطالها بالماء والطين. الأعين تبحث عنهما الآن، من منهما ستأخذ حموة الموس، وأي امرأة ستخرج الآن وتضع الطعام للحمار.. مرت دقائق وزينب تنتظر، وهدى تنتظر، والحمار ينتظر، إلى أن ظهرت خالة هدى بحزمة برسيم، ووضعتها أمام الحمار فارتفع النهيق.

هدى من وراء النخلة تسمع صراخ أمها، بين الحين والآخر، وترى خالتها تبحث عنها في كل مكان، وجدّتها تقف جوار الغولة وتغني على طبلها، تصفق فرحًا لقدوم المولود، وتنادي عليها: «تعالَيْ يا هدى، أحزمك، وارقصي لنا» أخوها سيولد الآن، وهدى كانت تحب الرقص كثيرًا، وزينب وجدت الفرصة أخيرًا لتهرب إلى أشجار البوص.

حفرت في الأرض وأخرجت كيس البودرة المدفون وراء البوص، ربما يأتي الدور عليها. سارت حافية على النخلة المصلوبة بين حافتي الترعة، وكادت أن تعبرها لولا امرأة قابلتها. وقفت في منتصف النخلة، قدماها ثقيلتان، التفتت إلى الجهة الأخرى فوجدت أمها تنتظر، اختل توازنها فوقعت في الترعة، اصطدمت بالقاع وملأ الماء البارد أنفها. روحها دودة رخوة وجسدها طين محروق. يد تعجنها ويد تخبز ملامحها، ويد تربّط الأحبال. رأت أمنا الغولة في بيت هدى. الأم ملقاة على الأرض وتحتها رداء قديم مبطن بالبلاستيك، مفشوخة الساقين، ولفيف من النساء معها. تضغط

الغولة على بطنها، فتعض الأم على قميص هدى. تأمرها بكتم الأنفاس. يلمع العرق على جبينها، تطلق، تسمع بكاء ابنتها المغدورة، تأتيها طلقة وراء أخرى، تسمع نداءات ابنتها من جديد، يطش قرنها في وجه الغولة فتمد يدها وتشد رأس الوليد، عندما يرى وجهها يصرخ ملسوعًا. تخرج الموس من الحقيبة وتقطع حبل سرته ثم تربطه بفتيل من الصوف. تنظر الأم إلى رضيعها بنصف عين وتقول إنه يشبه هدى. تشير الجدة إلى الغولة بقرف، فتمسح الدم العالق على وجهها وتمص إصبعها وشفتيها ثم تقرب الوليد إليها، تظن زينب إنها ستأكله. تصرخ، تنظر الغولة إليها، فترتعب. تمسكها إحدى النساء من الخلف وتقيدها، تحملها إلى أمنا الغولة. زينب بكت حتى السعال عندما رأتها عن قرب، نابها أزرق، شعر أنفها طويل مبتل. شدت إحدى النساء بنطال زينب، وأمسكت أخريات بيديها، فتحت المسكينة ساقيها. اقتربت الغولة بموسها وحشرت قميص هدى في فمها.

بعد قليل، شعرت بماء الترعة يخرج من فمها مع ديدان وأسماك صغيرة، وسمعت بكاء أمها وصوت غليظ يخبرها أنها حيّة، وأن ماء الترعة، فقط، تسلل إلى رأسها وأفسدها. شعرت بوحيٍّ يناديها «تعالي إلى الدوّار». تسللت خارج البيت. مشت على الجسر بساقين متعبتين، ونصف قمر يؤنسها. بومة على الأشجار تراقبها وخفاش يدلها على الطريق. دارت مع الجسر، حافية القدمين، على سلخة من تراب وحشيش، دفعت باب الدوّار ووجدت المكان ممتلئًا بالحجاج، بنات كثيرات تعرف أسماءهن، يدُرْنَ مع الخفافيش

حول أمنا الغولة، كلهن يشبهونها، بشعرها المنكوش ونابها الأزرق. كادت زينب أن تصرخ، وبدلًا من ذلك سـمعت طائـرًا يصرخ بصوت عال في صدرها بالملك لك لك لك، مع أصوات الترانيم والصلوات من حولها. ورأت جلدًا منقرشًا بالبياض يكسوها ونابًا وحشيًا ينبت في فمها. ومشت بخطى بطيئة حتى وقفت أمام أمها الغولة، وألقت عليها السلام.